المعز ـ المذل

في رحاب المعز نَسْعد ، ونَهْنأ مع اسم من أسماء الله الحسنى ، والاسم الذي هو مناط هذا البحث هو « المعز » « والمذل » ، ولهذا الاسم مقدمة مهمة أرجو أن تكون واضحةً في الأذهان .

حينما فطر الله عز وجل الإنسان ؛ فطره على أسس فيها قيام عيشه وحياته ، من هذه الأُسس أنه خَلَقَ فيه دافع الجوع ، وهذا الدافع هو سبب بقائه وسبب استمرار الحياة بالنسبة إليه ، لولا ذا الدافع لترك الطعام والشراب ، وانهار جسمه ، ومات دون أن يشعر بحاجة إلى تناول الطعام ، فدافع الطعام والشراب هو الذي يدفعه دائماً إلى التزود بهما حفاظاً على وجوده أو حِفاظاً على حياته ، هذا الدافع الذي أودعه الله بالإنسان معروف لدى الجميع .

أما بقاء الجماعة ، بقاء الجنس البشري فإنه يحتاج إلى دافع آخر ، إنه دافع الجنس ، فقد أودع الله في الرجل وفي المرأة على حد سواء ما يدفع كلاً منهما إلى أن يتجه إلى صاحبه إلى أن يتم الاتصال ، وقد شرع الله له الزواج ، هذا دافع آخر يدفع الإنسان إلى الحفاظ على بقاء النوع ، فالطعام والشراب يضمن بقاء الفرد ، أما دافع الجنس فيضمن بقاء النوع .

لكن علماء النفس وجدوا أن في الإنسان دافعاً قوياً جداً لا يقلُّ عن دافع الطعام والشراب ، ولا يقل عن دافع الجنس ، هو دافع ما يُسمى بالشعور بالأهمية ، أو تحقيق الذات أو تأكيد الذات ، ويمكن أن ندرجه تحت عنوان العزة ، فكل مخلوق لو توافر له الطعام والشراب ولو توافرت له الزوجة ، يشعر أنه لا بد أن يكون مهماً ، لابد أن يعتز ولو بجسمه ولو بماله ، ولو بنسبه ولو بخبرته ولو بحرفته ولو بقدرته على الأذى ، ولو بجبروته ، هناك دافع فطري يدفع الإنسان إلى الاعتزاز ، أن يؤكد ذاته ، أن يشعر الآخرين بأنه إنسان خطير ، بأنه متفوق أو بأنه عزيز .

والسؤال المطروح هو : لماذا أوجد الله في الإنسان دافع الطعام والشراب ؟ الإجابة سهلة ، حِفاظاً على بقاء الفرد ، ولماذا أوجد الله في الإنسان دافع الجنس ؟ حفاظاً على بقاء النوع وإعمار الأرض .

أما لماذا خلق الله في الإنسان دافع الاعتزاز ؟ دافع تأكيد الذات ، دافع الشعور بالأهمية ؟ فالإجابة عنه أيضاً سهلة ، هذا عون من الله عز وجل للنفس البشرية لعل هذا الدافع يقيها من الانحراف .

الإنسان أحياناً يخاف على سمعته ، يخاف على شرفه ، يخاف على مكانته ، يخاف على مرتبته ، يخاف على جاهه من أن يُخدش وأن يُمرّغ في الوحل ، وأن يتحدث الناس عنه بالمكروه ، يخاف أن يُفتضح ، ويخاف أن يسقط من عين الناس ويهون عندهم ، لولا هذا الدافع ، دافع الاعتزاز ، لهان على كل إنسان اقتراف المعصية ، ولهان سقوطه ممرغاً ، ولهان عليه انحرافه ولهان عليه انغماسه في الوحول ، طبعاً ليس معنى هذا أنه ليس في بني البشر من هانت عليه

نفسه ، الفطرة قد تشوّه والعزة قد تمرغ بالوحل ، هذه حالات شاذة وحالات استثنائية ليست مناط الحكم ، نحن حينما نقول الإنسان هكذا نقصد في الأعم الأغلب وفي الخط العريض ، إلا أن هناك لكلِّ حالة استثناءات وخصوصيات في الطرف الأول والطرف الثاني ، ولنضرب مثلاً : لو أن طفلاً في مدرسة رأى قلماً وأعجبه فوضع القلم في جيبه ، صاحب القلم اشتكى ، والمدرس سأل ، فلا أحد يجيب ، ولو فرضنا أن هذا المدرس منع الطلاب من الخروج من الصف ، وفتش الطلاب واحداً واحداً ، وضبط هذا القلم في جيب أحد الطلاب ، حتى لو أن هذا الطالب في الصف الأول أو في الحضانة أو في أي صف ، لشعر هذا الطالب وقد كشف أنه سرق قلماً وكذب ، لشعر بآلام لا توصف ، وبخجل شديد ، ويتمنى أن تبتلعه الأرض ، فما هذا الشعور ؟ هذا شعور الاعتزاز الذي أودعه الله في الإنسان .

أودع الله في الإنسان هذا الشعور من أجل أن يبتعد عن المعصية ترفعاً واعتزازاً وتأثماً ، فنحن بادىء ذي بدء نقول : أودع الله عز وجل في الإنسان دافع الطعام والشراب ودافع الجنس ودافع الاعتزاز ، ويمكن أن نطلق على الدافع الأسماء المتنوعة التالية : الشعور بالأهمية أو تأكيد الذات أو إثبات الذات أو دافع الاعتزاز .

فلو جلست إلى أي إنسان يقول لك مفتخراً : أنا لي موقف لا ينسى ، هذا يقول لك : أنا فعلت كذا ، أنا في مصلحتي الأول ، صنعتي متقنة ، لن تجد إنساناً إلا ويعتز إما بحرفته أو بمهنته أو بماله أو بصحته أو بقوته أو بنسبه أو بكذا وكذا .

إذاً ما أودع الله في الإنسان هذا الدافع إلا من أجل أن يقيه السقوط ، إلا من أجل أن يقيه الانحراف ، إلا من أجل أن يقيه

الفضيحة ، وهذه واقعة أرويها سريعاً للقراء الكرام ، دعماً للفكرة ، وعسى أن يجدوا فيها العبرة والعظة :

رجل منحرف متبذل متحلل من كل قيد اقتنى آلة تصوير فيديو وصوّر نفسه مع زوجته ، بأوضاع مبتذلة ، وأعاد الشريط إلى مكتب إعارة الأشرطة بالخطأ ، إذ وضعه خطأً في علبة من نوع علب الإعارة ، ففوجيء صاحب هذا المكتب بشريط جديد ، طبع منه نسخاً كثيرة ووزعه ، إلى أن وصل الشريط إلى أحد إخوة هذا الإنسان ، نظر فإذا أخوه وامرأة أخيه في أوضاع مبتذلة يندى لها الجبين ، أعلم أخاه ، هذا الإنسان ظروفه جيدة ، ودخله وفير ، مطمئن في بيته ، اضطر هذا الإنسان إلى أن يبيع بيته في دمشق ، وأن ينتقل إلى حمص فِراراً من الفضيحة ، ما الذي حرّك هذا الإنسان ؟ اعتزازه فهذا فضيحة كبيرة جداً ، حين تنكشف الأشياء الخاصة لدرجة أن تصبح منشورة بين الناس .

لمثل هذه الحال يقال : **طوبى لمن وسعته السنة ، ولم تستهوه البدعة** ، هذه بدعة ، وهناك أحاديث شريفة كثيرة جداً تؤكد أن هذه العلاقات الحميمة الخاصة لا ينبغي أن يجاهر المرء بها ، فكيف إذا صُوِّرَت ؟ فما الذي دفعه إلى أن يهجر بلده ؟ الفضيحة ، وقد يندفع الإنسان إلى الانتحار إذا شَعَرَ بالفضيحة ، أحداث كثيرة جداً ، يكتشف المرء أنه تلاعب أو أنه سرق ، وسوف يفضح على الملأ وعلى صفحات الجرائد ، فقد ينتحر .

إذاً : ينبغي ألا يستخفَّ أحد بهذا الدافع ، دافع الاعتزاز ودافع الشعور بالأهمية ، دافع العزة ، دافع تأكيد الذات ، دافع إثبات الذات

فهو دافع كبير جداً وخطير وما أودعه الله في الإنسان إلا رحمة بالإنسان وما أودعه الله في الإنسان إلا حصناً له ، ما أودعه الله في الإنسان إلا سياجاً منيعاً يحول بينه وبين السقوط في براثن القيل والقال .

وبعد فإن من أسماء ربنا سبحانه وتعالى المعز ومن أسمائه المذل ، والحقيقة أنت تكون عزيزاً لمجرد أن طبقت أمر الله ، مثلاً حينما تغض بصرك عن محارم الله ، حينما لا تخلو بامرأة أبداً ، حينما لا تكذب ، حينما لا تبوح بسرك وبما في قلبك لا يستطيع الناس أبداً أن يضعوك في موضع التهمة والذلة ، لو أن إنساناً دخل إلى بيت صديقه وصديقه ليس في البيت ، ولو كان بريئاً يتحدث الناس عنه ، يجرحه الناس ، إذاً أنت لمجرد أن تُطبّق أمرَ الله عز وجل ، تكون نزيهاً عفيفاً مستقيماً ملتزماً بالشرع فتكتسب عزة الشرع ، هذه أول نقطة ، فأنت عزيز لأنك مطيع لله عز وجل والله المعز حينما أمرك بهذا المنهج حصَّن سمعتك .

النبيُّ عليه الصلاة والسلام ، لا ينطق عن الهوى ، قال :

« لا يخلون رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما »

[رواه الترمذي من حديث عمر]

فأنت ما دمت ملتزماً وعاملاً بنصِّ هذا الحديث فلا يستطيع أحد في الأرض أن ينال منك ، ولا أن يتهمك ، ولا أن يمرغك في الوحل ، ولا أن يلهج بين الناس بما يشينك ، لأنك عملت بأمر الله عز وجل ، في تطبيق أمره سبحانه حفاظ على سمعتك وعلى كرامتك وعلى عزتك وعلى مكانتك وعلى شأنك .

إذاً : الفكرة الأولى في هذا البحث أنك إذا طبقت أمر الله عز وجل واستقمت عليه ، ووقفت الموقف الشرعي في كل حالاتك فأنت عزيز ، والنبي ﷺ علمنا أشياء كثيرة ، كان مع زوجته صفية رضي الله عنها ، مر رجلان من الأنصار فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا ، فقال النبي ﷺ « على رِسلِكُمَا ، إنها صفية بنت حيي » فقالا : سبحان الله! يا رسول الله! قال : « **إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شراً** » [رواه مسلم] ، فالبيان يطرد الشيطان ، فأنت أدركت أن هذه حرام ، وهذه حلال ، هذه تجوز ، هذه لا تجوز ، وعزمت مثلاً ألا تدخل بيتاً ليس فيه رجل حتى لو كنت من أصحاب الحِرَف التي تستدعي العمل داخل المنازل ، إذا وجدت أن في الدخول لهذا البيت كإصلاح صنبور الماء ، خلوة ، فأنت لأنك مؤمن عليك ألا تدخل ، ولك أن تضحي بأجر ذلك اليوم حِفاظاً على سمعتك وعلى عزتك وعلى كرامتك ، هذا هو المعنى الأول ، فأنت أمين ، فالأمين عزيز ، عفيف ؛ العفيف عزيز ، صادق ؛ الصادق عزيز . تصور نفسك أنك تكلّمت بكلام فيه كذب في مجلس فدخل رجل يعرف الحقيقة ، فقال : ما الموضوع ؟ فقال أصحابك : والله فلان حدثنا كذا وكذا ، فقد ينظر إليك ، ويقول : لقد كنت معك حين ذاك ، والأمر غير صحيح . . فيبهت الذي كذب . .

إذاً لن تكون عزيزاً إلا إذا كنت صادقاً ، لن تكونَ عزيزاً إلا إذا كنتَ عفيفاً ، لن تكون عزيزاً إلا إذا كنت أميناً ، والدليل ، لو أن ابنك رَجَاكَ أن ترد على أصدقائه إذا اتصلوا به بالهاتف وتقول : إنه غير موجود ، وهو موجود حقيقة ، وكذبت ، فإنه لو لم يطلع إنسان على هذه الكذبة ، وتمت ، يعلم ابنك ، بل هو الذي طلب منك

ذلك ، فإنك تشعر أن هناك ضعفاً في شخصيتك ، تشعر بانهيار جزئي ، لا ، بل قل له : ابني مشغول ، وهو يعتذر عن لقائك ، هذا هو الصحيح ، فأنت لن تكون عزيزاً إلا إذا كنت مستقيماً على أمر الله ، العفيف عزيز ، الأمين عزيز ، المستقيم عزيز ، الصادق عزيز ، المخلص عزيز ، الواضح عزيز .

إنّ أيَّ انحراف يتبعه ذُل الفضيحة ، عرف أحدهم أنك لست بصادق ، لحقك الذل ، عرف أنك لست بحكيم جاءك اللوم ، كشف أنك لست بأمين فسحب الثقة منك ، كُشِفَ أنك لست بعفيف تشكك الناس فيك .

إذاً من أسماء الله المعز ، الذي أنزل على نبيه ﷺ كتاباً وأنطقه ببيان ، ونظّمَ نظاماً ، وقنن قانوناً ، وسنَّ سُنَناً ، وشرع شرائع إذا طبقتها بحكمة وبحذق وبدقة ، فأول ثمرة من ثمارها أنك تعيش بين الناس عزيزاً ، لا يستطيع أحد أن يلوك سمعتك بلسانه ، لا يستطيع مفترٍ أن يفتري عليك ، لا يستطيع متهم أن يتهمك ، لا يستطيع لأنه ليس لديه دليل ، أما إذا كانت هناك انحرافات ، هناك اختلاط ، وأماكن مشبوهة ، وعلاقات مريبة ، وهناك تداخلات وقد تكون بريئاً ، ولكن الناس يمضغونك بالأفواه ، هذا المعنى الأول : أن الله عز وجل يعزك من خلال شرعه ، يكفي أن تطبق شرعه فأنت عزيز ، وإذا كنت عزيزاً حققت ثلث وجودك ، الأول : الطعام والشراب ، الثاني : الزواج ، الثالث : تحقيق الذات ، تأكيد الذات ، الشعور بالعزة ، ومعلوم مما سبق أنه لا يجوز أبداً أن تقول : الله مذل فقط ، بل الله معز ومذل ، والأصوب أنه يذل من أجل أن يعز .

مثلاً : أذكر أن أحد إخواننا الأكارم صاحب محل تجاري ، عيّن

موظفاً ، ذلك الموظف ضعيف الوازع الديني ، ضعيف الانضباط ، فمنذ الساعة الثامنة صباحاً وحتى الساعة الحادية عشرة ، وحده في المحل ، وهو متزوج حديثاً ، وزوجته لها طلبات كثيرة ، ضعف أمام نفسه فمن حين لآخر يضع مبلغاً في جيبه دون أن يعلم صاحب المحل ، صاحب المحل بالفراسة ، بالحاسة السادسة شعر أن المحل فيه نقص في البضاعة ، وفيه نقص في الغلة ، فماذا فعل ؟ رجا صديقاً له أن يأتي محله التجاري الساعة التاسعة ويشتري حاجات بخمسمئة ليرة ويدفع ثمنها نقداً ، ثم يعود في الساعة الخامسة ليعيد البضاعة لسبب ما ، فجاء صاحب المحل في الساعة الحادية عشرة ، وسلم على موظفه الكريم وسأله : ماذا جرى في هذه الساعات الثلاث ، فأخبره أن لا شيء ، قال : أما جاء أحد واشترى ؟ قال : لا ، حينما دخل ذاك الذي اشترى بضاعة في الصباح يريد أن يعيدها الساعة الخامسة وكان صاحب المحل وراء الطاولة ، والموظف حاضر فأخذت الموظف الخائن رعدة كاد أن ينهار على إثرها ، ووالله لو نظرت إلى وجهه لرأيت دماً ، قفز إلى وجهه ثم تبدد ليعلو الوجه شحوب المهانة ، وذل الخيانة .

ألم يذله الله ؟ لماذا أذله ؟ ليحمله على التوبة ، فإذا تاب واستقام على أمر الله صار عزيزاً ، فالله عز وجل لا يضع الإنسان في موضع ذليل إلا من أجل أن يعالجه كي يعزه ، فاعلم إذاً أن الله عز وجل هو المعز وهو المذل ، وينبغي أن تنطق هذين الاسمين معاً ، وينبغي أن تعتقد جازماً أنه إذا أذل فمن أجل أن يعز ، لكن البطل لا يحتاج إلى أن يذل كي يعز .

ذكرت من قبل أن الإنسان يمكن أن يكشف الحقائق بنفسه ، ولكن قد يكشفها بعد فوات الأوان ، وقد يكشفها وقد دفع حياته ثمناً لها ، وقد يكشفها وقد أضاع سعادته الزوجية وأردى نفسه وأهله .

إنسان تزوج امرأة ، دفعها إلى أن تعمل خارج البيت طمعاً براتبها ، دفعها إلى التحرر الزائف ، دفعها إلى الاختلاط المريب ، فهو إنسان عصري ، إنسان متفتّح العقل كما يقال ، إنسان واثق من زوجته إنسان . . إنسان . . إنسان ، وبعد أن دفعها إلى الانفتاح ، وإلى الاختلاط ، وإلى التبذّل ، وإلى أن ترتدي ثياباً وفق أحدث الصرعات ، صار اهتمامها به قليلاً ، صار غيابها عن البيت كثيراً ، اتصالاتها مريبة ، فوجيء أنها اشترت بيتاً آخر ، من دخل خاص جاءها ، فوجيء أنها استغنت عنه ، فقال بالحرف الواحد : يلزمني ذبح على هذا التصرف الذي فعلته مع زوجتي ، يحبها فدفعها نحو التحرر فأحبت غيره ، وانساقت مع غيره ، واستغنت عنه ، هذا الإنسان بربكم أيها القراء الكرام لو أنَّ في دمه كريات حمراء وبيضاء لرأى أنه كان مخطئاً في عمله بداية ، لقد عرف أنه كان مخطئاً لكن بعد فوات الأوان ، بعد أن ضحّى بسعادته الزوجية ، بعد أن ضحّى بأم أولاده ، بعد أن افتقر إلى العُش الإسلامي الحاني الدافيء .

أنا لا أريد لك هذه التجربة ، ولا أريد أن تكون حكيماً بعد أن تدفع الثمن باهظاً ، لكنك إذا اتبعت كتاب الله وسُنةَ رسولهِ ﷺ في مقتبل حياتك فأنت تهتدي برأي الخبير ، وبِحِكَمِ الخبير العليم ، أنت تستعمل هذه الآلة وفق هواك ، فيصيبها العطب ، ثم تُصلِح العطب ،

وتدفع الثمن باهظاً ، ويهبط مستواها ومردودها ، فلو أنك استعملت تعليمات الصانع لَصُنتَ هذه الآلة وأخذت منها أكبر مردود ، فليست البطولة أن تعرف الحقيقة بعد فوات الأوان ، ولكن البطولة أن تعرفها في الوقت المناسب .

إذاً : يمكن أن تكون عزيزاً إذا اتبعت كلام الله ، ويمكن أن تكون عزيزاً إذا أذلك الله عز وجل إثرَ انحراف ثم تبت من هذا الذنب ، فأنت بين أَن تكون عزيزاً بعد ذل ، وبين أن تكون عزيزاً بعد علم ، والفرق كبير ، تعلّم منذ البدء وكن عزيزاً ، وإيّاك أن تدفع ثمن عزتك ذلاً ومهانةً وإيلاماً .

قيل : المُعِزُّ والمُذِلُّ اسمان من أسماء الله تعالى ، وصفتان من صفات فعله ، والله عز وجل له ذات وله صفات وله أفعال ، إذاً له أسماء ذات وله أسماء صفات وله أسماء أفعال ، فمعظم العلماء يؤكدون أن اسم المعز والمذل من أسماء الأفعال ، هما اسمان من أسمائه تعالى ، وصفتان من صفات فعله ، فإعزازه للعبد يكون في الدنيا والآخرة ، لكن إياك أن تغتر بعز الدنيا ، فقد يكون عز الدنيا استدراجاً ، لذلك :

رب نفس طاعمة ناعمة في الدنيا ، جائعة عارية يوم القيامة . ورب نفس جائعة عارية في الدنيا ، طاعمة ناعمة يوم القيامة . ورب مكرم لنفسه وهو لها مهين . ورب مهين لنفسه وهو لها مكرم . ورب متخوض ومتنعم فيما أفاء الله على رسوله ، ما له عند الله من خلاق . ألا وإن عمل الجنة حزن بربوة . ألا وإن عمل النار سهل بسهوة . ألا يا رب شهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً .

أحياناً ترى شخصاً حياته ناعمة جداً ، منزل واسع مفروش بأجمل الأثاث ، التكييف ، التدفئة ، التزينات ، الجبصين ، الثريات ، لا تُضاهَى أناقته ، مركبته ، مكتبه ، دخله ، تجارته ، مكانته ، ثيابه الأنيقة من أعلى مستوى ، ما شاء الله ، هذا طاعم شارب ناعم ، وقد يكون مصيره إلى النار ، وقد تجد إنساناً خشن الثياب خشن الطعام خشن الشراب ، منزله ضيق ، حياته من الدرجة الخامسة ، لكنه طائع لله عز وجل ، العبرة في النهاية ، « **ألا يا رب نفس طاعمةٍ ناعمةٍ في الدنيا جائعةٍ عارية يوم القيامة ، ألا يا رب نفسٍ جائعةٍ عاريةٍ في الدنيا طاعمة ناعمةٍ يوم القيامة** » .

لكن : « **ألا يا رب مكرم لنفسه وهو لها مهين ، ألا يا رب مهين لنفسه وهو لها مكرم** » أحياناً الإنسان بدافع من عزته الباطلة يعصي الله ليحافظ على مكانته ، فلو كُنت بين أُناس فُجّار ، بين أُناس منحرفين وأردت أن تماشيهم في معصية حِفاظاً على مكانتك عندهم ، فقد أكرمت نفسك أمامهم ، ولكنك سوف تجعلها في الوحول يوم القيامة ، « **ألا يا رب مكرم لنفسه وهو لها مهين ، ألا يا رب مهين لنفسه وهو لها مكرم** » .

قد تضع نفسك في الدنيا حفاظاً على دينك وحفاظاً على استقامتك ، وحفاظاً على مرضاة ربك وحفاظاً على آخرتك ، وحفاظاً على اتصالك بالله ، قد تضع نفسك في موضع صعب جداً ، قد تقول : لا أفعل ، وهناك ضغط كبير من أجل أن تفعل ، قد تقول : لا أفعل وهناك إغراء كبير من أجل أن تفعل ، حينما ترفض تأتيك عبارات التقريع والسخرية والتعليقات والاتهامات ، « **ألا يا رب مهين لنفسه وهو لها مكرم** » .

قد تكون عضواً في لجنة يعرض عليك كذا وكذا ، تقول : لا أفعل هذا ، حينما ترفض أن تفعل هذا ، تُعزَل من هذه اللجنة ، ويأتيك اللوم الشديد ، ويُقال لك : إنك مجنون ، ضيّعت فرصة العمر في أن تكون غنياً ، « **ألا يا رب مهين لنفسه وهو لها مكرم** » .

إذا أردت أن تفعل أمراً فتدبّر عاقبته ، مرة قرأت بحثاً لطيفاً ، سألوا مئة زوج في بلد غربي : لماذا لا تخون زوجتك ؟ هذا اسمه استبيان في علم النفس ، يعني هذا الذي لا يخون زوجته ما الذي دفعه إلى ذلك ؟ فجاء الجواب متنوعاً ، بعضهم قال : لا أستطيع ، لأنه يعمل معها في مكان واحد فهي تراقبه ، فقالوا : هذا أسخف جواب ، هو يتمنى ، ولكنه لا يستطيع .

أحياناً لا يستطيع تحمل الإثم ، ولو كان بينه وبين نفسه ، إذا فعل الإنسان فعلاً شنيعاً ، ولم يعلم به أحد ، يواجه نفسه بمرارة التعنيف ويواجه اللوم الداخلي ، يواجه التحقير الداخلي ، يواجه السقوط الداخلي ، فجاءت بعض الأجوبة : إنني لا أستطيع تحمل هذا الإثم ، وجاء جواب آخر : إنني أكره الخيانة ، فالثاني إذاً لو أنه تحمّلَ ألم الشعور بهذا الإثم لفعلها ، لكن ابتغى راحة نفسه ، لكن الثالث قال : أنا أكره الخيانة ، هذا أرقى جواب .

فالإنسان حينما يضع نفسه في مواطن صعبة حِفاظاً على عزته البعيدة ؟!! ، فالأغبياء دائماً يعيشون وقتهم ، الأغبياء يعيشون لحظتهم ، يعيشون ساعتهم ، أما الأذكياء فيعيشون مستقبلهم ، فإذا أردتَ أن تجري فحص ذكاء ترى إنساناً يعيش وقته ، يهمل صحته ، يهمل واجباته ، تأتيه المتاعب ، تأتيه الهموم ، تأتيه الأمراض ، لكن

الإنسان الأعقل هو كما قال في وصفه النبي ﷺ : « **الكيس من دان نفسه وعمِلَ لِما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسَهُ هواها وتمنى على الله الأماني** » [أحمد والترمذي وابن ماجه] عن شداد بن أوس .

عاش في العصور العباسية أديب اسمه ابن المقفع ، له كتاب كليلة ودمنة ، وهو كتاب مترجم عن اللغة الفارسية ، كتاب فيه قصص على ألسنة الحيوانات ، وهي مواعظ بالغة ، من هذه القصص حديث عن سمكات ثلاث ، قال : كيّسة وأكيس منها وعاجزة ، هناك غدير ماء ، فيه سمكات ثلاث كيّسة ، يعني : عاقلة ، وأكيس منها يعني : أعقل ؟ وعاجزة ، هذا الغدير له فتحة يتصل بها مع نهر ، فقال : اتفق أن مر بهذا المكان صيادان ، فأبصرا الغدير ، وأبصرا ما فيه من السمك ، فتواعدا أن يرجِعا ومعهما شباكهما ليصيدان ما فيه من السمك ، فسمعت السمكات قولهما « **القصة رمزية طبعاً** » ، أما أكيسهن ، يعني أعقلهن ، أما أعقلهن فإنها ارتابت وتخوفت وقالت : العاقل يحتاط للأمور قبل وقوعها ، هذا العاقل ، خذ هذه القاعدة واعمل بها « **العاقل يحتاط للأمور قبل وقوعها** » ، والأقل عقلاً حين وقوعها ، والأحمق بعد وقوعها ، هذه الكيّسة قالت : العاقل يحتاط للأمور قبل وقوعها ، ولم تعرج على شيء حينما سمعت هذه الكلمة ، وسارعت حتى خرجت من المكان الذي يدخل منه الماء من النهر إلى الغدير فنجت واستراحت ، وأراحت ، وانتهى الأمر ، وهذا شأن العاقل من الناس .

وأما الكيّسة الأقل عقلاً ، فبقيت في مكانها حتى عاد الصيادان ، وبسذاجة قالت : سوف أخرج من هنا حين يقدمون ، فلما أرادت أن تخرج من حيث خرجت رفيقتها فإذا بالمكان قد سدّه الصيادان ،

فقالت : فرطت وهذه عاقبة التفريط ، لكنها لم تستسلم ، وقالت : إن العاقل لا يقنط من منافع الرأي ، ذكية ولكنها أقل ذكاء من الأولى ، ثم إنها تماوتت ، فطفت على وجه الماء منقلبةً تارةً على بطنها وتارة على ظهرها ، فأخذها أحد الصيادين فوضعها على الأرض بين النهر والغدير فوثبت في النهر فنجت « **ولكن تحطمت أعصابها ودفعت ثمناً باهظاً** » ، وأما العاجزة ، فلم تزل في إقبال وإدبار حتى صيدت وأكلت ، وهذا حال العاجز من الناس « **تراه مرتبكاً يتلجلج جسماً ونفساً** » فالعاقل إذاً يحتاط قبل وقوعها ، الأقل عقلاً يبادر مع وقوعها ، العاجز يعرف الحقائق وعواقب الأزمات بعد وقوعها فيردى .

إن الله عز وجل يُعز الإنسان استدراجاً ، كأن يسول له بعضهم : إن فعلت كذا نضعك في هذا المكان ونمن عليك بكذا وكذا ، شيء مغرٍ ، مما يرفع شأنك عالياً بين الناس ، مبلغ كبير جداً تحل به كل مشاكلك ، تشتري بيتاً فخماً ومركبة تزهو بها بين الناس ، نبوئك منزلة رفيعة تمكنك من الهيمنة على الآخرين ، فكل هذا عِزّ ، ولكن هذا العز استدراج ، فإيّاك أن تفعل من هذا ، قل : الله الغني ، لو كنت في دائرة مظلمة ، لو كنت في زوايا النسيان وكنت طائعاً للواحد الديّان فأنت العزيز وأنت الرابح .

قالوا : فأما في الدنيا فقد يكون العِز إما بالمال أو بالحال ؛ بالمال ، وبالجمال ، وبالغنى ، وبالقوة ، وبالأعوان والأولاد ، وبالزوجات ، وبالمناصب ، وبِمتع الدنيا ، وبالبيوت وبالبساتين ، أحياناً قد يكون للإنسان منتجع جميل ، أو بستان وارف الظلال ، يدعو أصدقاءه ، ما شاء الله ، ما هذا الجمال ؟ يشعر عندئذٍ بِعِزّ ،

يزهو بهذا المنتجع ، ويشمخ بهذا البستان وما علم أنه فيض عطاء من الله سبحانه ، وأخذته عزة الدنيا زهواً .

اجعل لربك كل عزٍّ ك يستقر ويثبت
فإذا اعتززت بمن يمو ت فإن عزك ميت

فحينما يعتز بشيء من متاع الدنيا فإن عزه باطل ، بل يعتز أحياناً بشخص قد مات ، أو بمتاع فانٍ ، لذلك من علامات قيام الساعة أن المرء في آخر الزمان قيمته متاعه فقط ، كل مكانتك من ثيابك المستورة ، أصرت عظيماً بذلك ؟ أصرت عظيماً من مساحة بيتك الواسع ، أو من موقع بيتك في شارع كذا أو حي كذا فمن استمد عِزّهُ من الدنيا فقد وقع في متاهة كبيرة .

قال بعض العارفين : « **عز الدنيا بالمال وعز الآخرة بالحال** » ، لك حال فيه طهر ونقاء واستقامة وشوق ومحبة وقرب ، هذا عِزّ الآخرة أما المال فهو عز الدنيا والمال والدنيا إلى زوال .

قيل : إن فتحاً الموصلي ، كان قاعداً ، فسُئِلَ عمّن يلهث وراء الشهوات كيف صفته ؟ وكان بقربه صبيان ، مع أحدهما خبز بلا إدام ، ومع الآخر خبز وإدام ، فقال الذي لم يكن له إدام لصاحبه : أطعمني مما معك ، فقال : بشرط أن تكون كلبي ، فقال صاحبه : نعم ، فجعل خيطاً في عنقه يعطيه اللقمة في فمه ويجره من عنقه كما يُجر الكلب ، فقال فتح الموصلي للسائل : أما إنه لو رضي بخبزه من دون إدام ولم يطمع في إدام صديقه لم يصر كلباً له . قال أبو موسى : فهكذا الدنيا .

إنها حكاية بليغة حقاً .

قصة ثانية ، وهذا حديث ورد على لسان سيدنا داود ، أن الله تعالى أوحى إليه أن يا داود ، حذِّر وأنذر أصحابك الشهوات ؛ فإن القلوب المعلّقة بشهوات الدنيا عقولها عني محجوبة .

وحُكِي عن بعضهم أنه دخل على تلميذ له فقدم التلميذ خبزاً قفاراً ولم يكن له إدام ، فأخذ يتمنى بقلبه ؛ أن ليت كان له إدام يقدمه إلى أستاذه ، فأدرك الأستاذ أمنية الطفل فقام وقال : تعال معي ، فحمله إلى باب السجن ، فرأى الناس يضربون وتقطع جلودهم ويعذبون ، فقال الأستاذ لتلميذه : ترى هؤلاء الذين لم يصبروا على الخبز وحده ماذا حل بهم ؟ إنهم سرقوا ووقعوا تحت السياط .

وقيل : إن رجلاً خرج من السجن وفي رجله قيد يسأل الناس ، ويقول : أعطوني كسرة خبز ، فقال له أحدهم : لو قنعت بالكسرة لما وضع القيد في رجلك .

وهذه قصة رمزية ، يُروى أن رجلاً وقف بباب أمير ، فرأى خادماً يدخل بلا استئذان ، فعلم أن عفة هذا الخادم هي السبب في أن الحجاب قد رفع بينه وبين الأمير ، فلا شيء يدق أعناق الرجال كالطمع ولا شيء يذل الرجال ويحقرهم كالجشع .

الله عز وجل مُعِزّ ، مُعِزّ إذا طبقت شرعه ، ومُعِزّ إذا استغنيت به عمّن سواه ، لذلك يقول عليه الصلاة والسلام :

عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ : « **لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه** » ، قالوا : وكيف يذل نفسه ؟ قال : « **يتعرض من البلاء لما لا يطيق** » [رواه الترمذي من حديث حذيفة رضي الله عنه] .

« **اطلبوا الحوائج بعزة الأنفس ؛ فإن الأمور تجري بالمقادير** » .

وأخرج الطبراني في الأوسط بسند حسن عن سهل بن سعد قال جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال : يا محمد! ، عش ما شئت فإنك ميت ، واعمل ما شئت فإنك مجزيٌّ به ، وأحبب من شئت فإنك مفارقه ، واعلم أن شرف المؤمن قيام الليل ، وعزه استغناؤه عن الناس » .

فالعزة التي هي اسم من أسماء الله أيضاً صفة أساسية من صفات المؤمنين ، لقوله تعالى :

﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون : ٨] .

إذا كنت مؤمناً حقاً فأنت عزيز لأنك مع العزيز ، ولأنك على شرع العزيز ، ولأنك مفتقر للعزيز ، ومعتمد على العزيز ، والعزيز لن يخيب ظنك .

قال بعضهم : إعزاز الله لعباده يكون بصحة قناعتهم ، فإن الذل كله في الطمع .

وخلاصة البحث إذاً : المعز والمذل اسمان من أسماء الله الحسنى لصفتين من صفات أفعاله ، وموقف العبد من هذين الاسمين أنه إذا طبق أمر الله صار عزيزاً ، حكيماً ، وبمصطلح الفقهاء تحصيل حاصل ، يعني أمر الله فيه بذور عزه المطبق ، والله عز وجل بأمره التكويني يعزك إذا اعتززت به واعتمدت عليه وأخلصت له وأقبلت عليه ولم تشرك به ، والمعز والمذل اسمان يجب أن نلفظهما معاً ، والأصوب أن نقول : يذل ليعز .

* * *